الفصل الأول

البيئة الحاكمة لتحركات الأطراف
- سياسياً وأمنياً- تجاه الحرب

- الورقة الأولى

البيئة الحاكمة لتحركات
الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والصين

- الورقة الثانية

البيئة الحاكمة لتحركات إسرائيل

- الورقة الثالثة

البيئة الحاكمة لتحركات الدول العربية
«الاعتدال والممانعة»، وإيران وتركيا

- الورقة الرابعة

البيئة الحاكمة لتحركات المقاومة
الفلسطينية واللبنانية

الورقة الأولى

البيئة الحاكمة لتحركات الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والصين

د. رائد نعيرات*

إنَّ هدف الدراسات السياسية المستقبلية هو الوصول إلى رسم خارطة شاملة لطبيعة المتغيرات السياسية والعامة وعلاقاتها السببية، ضمن منظومة تتيح للباحث إمكانية ضمّ مسارات هذه المتغيرات وتطوراتها الحالية والمستقبلية، ومن ذلك الوقوف على طبيعة المحدِّدات المؤثرة في هذه المسارات.

ولعلَّ الفائدة الرئيسية للدراسة السياسية المستقبلية تتمثَّل في مساعدتنا في الوصول إلى تصور سليم لموضوع الدراسة، ومحاولة للتنبؤ العلمي بالتطورات المستقبلية؛ فهي دراسة للظاهرة ضمن مختلف محدداتها مشفوعة بحاضرها وماضيها، وطبيعة تطورها واتجاهات هذا التطور.

وتمتاز الدراسات السياسية المستقبلية بالتعقيد غير المقصود، نظراً لكون محددات الظاهرة (موضوع الدراسة) تلعب دوراً مميزاً في طبيعة نموها الحالي والمستقبلي، ومن المهم الوقوف على الديناميكيات المحركة لهذه الظاهرة.

وكذلك فإنَّ التعقيد يكمن في طبيعة الفاعلين المؤثرين، حيث إنَّه لا يمكن إجراء دراسة مستقبلية حول ظاهرة معينه دون الأخذ بمصالح وأهداف الأطراف المؤثرة والمتأثرة بتلك الظاهرة، فأحياناً تكون هناك مصلحة لطرف معين في تطور ما مرغوب في الظاهرة، إلا أنَّ المثبط أو المانع لحدوثها هو ليس ما يجنيه من منافع مقارنة بما قد يجنيه الخصم من منافع.

وستحاول هذه الدراسة الوقوف على المحددات المؤثرة في مواقف الأطراف المعنية في الشرق الأوسط، وتحرُّكاتها، والبيئة التي تحكم هذه المواقف والتحركات باتجاه الدفع أو عدم السماح باندلاع حرب في المنطقة.

ومن هنا فإنَّ الهدف العام لهذه الورقة هو الوقوف على مدى إمكانية اندلاع حرب

* أستاذ العلوم السياسية- جامعة النجاح/ نابلس.

جديدة في الشرق الأوسط، والبيئة التي ستتحكم في توجهات وسياسات وتكتلات الدول العظمى التالية: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، وروسيا والصين.

تحليل المشكلة

إنَّ تحليل المشكلة (إمكانات نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط وأدوار التكتلات والدول العظمى اتجاهها) يتطلب من محلل السياسات الوقوف على ثلاثة محاور أساسية، ثم معالجة سياسات أطراف الصراع في الشرق الأوسط بناء على هذه البيئة، وهذه المحاور هي البيئة السياسية والاستراتيجية في الشرق الأوسط، والبيئة السياسية والاستراتيجية الدولية، وطبيعة الحرب المتوقعة.

أولاً: البيئة السياسية والاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط

تتميز البيئة الجيوسياسية في منطقة الشرق الأوسط في هذه الأيام باحتوائها على مجموعة من العناصر التي يمكن تبويبها على النحو التالي:

١. تعدد مشاريع النفوذ الإقليمية الفاعلة في المنطقة وتنوّعها، وتأثيراتها المتداخلة والمتضاربة، وهذه المشاريع هي:
   - المشروع الإسرائيلي- الأمريكي.
   - المشروع الإيراني.
   - المشروع التركي.

٢. اصطفاف التكتلات والدول الغربية الفاعلة في المنطقة في محورين: محور الممانعة ومحور الاعتدال.

٣. فاعلية قوى المقاومة والرفض العلني في التأثير المحلي والإقليمي: إيران، وحزب الله، وحماس، والعراق، وأفغانستان.

٤. وجود الزخم الجماهيري واقتداره، أو حتى شعوره بالقدرة على التغيير، مقابل الضعف الذي يعتري بعض الأنظمة الرسمية في المنطقة وعلى رأسها مصر، والنظام الرسمي في العراق.

٥. ضعف المؤسسات الرسمية العربية (جامعة الدول العربية، مجلس التعاون الخليجي...)، أو على الأقل عدم فاعليتها في التأثير، بما في ذلك قدرتها على احتواء حرب قادمة.

ثانياً: البيئة السياسية والاستراتيجية الدولية

١. انشغال الدول بالمشاكل الدولية (الانهيارات الاقتصادية، والبطالة والكساد... إلخ).
٢. استمرار التنافس الدولي وتجدده (الصين، وروسيا، والولايات المتحدة الأمريكية).
٣. استمرار فاعلية القاعدة واستمرار الجهود الدولية في مكافحة «الإرهاب».
٤. تطور التوجهات الدولية للإدارات الحاكمة للتأثير في المنطقة وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

ثالثاً: طبيعة الحرب المتوقعة في الشرق الأوسط

١. تنوع أشكال الحرب المتوقعة، ومحاورها، ومناطقها: إيران، ولبنان، وغزة، وسوريا.
٢. الأهداف المتوخّاة، والنتائج المتوقَّعة للأطراف من حرب قادمة في الشرق الأوسط (إسرائيل – لبنان – غزة – أمريكا – العراق- أفغانستان).
٣. دروس الحروب السابقة.
٤. مدى تأثير أي حرب قادمة في عملية السلام والمشاريع في المنطقة.

المشاريع الفاعلة في الشرق الأوسط

١- المشروع الإسرائيلي الأمريكي

إنَّ الهدف العام للمشروع الإسرائيلي- الأمريكي هو جَعْل إسرائيل دولة مركزية في المنطقة، حيث جعلت أمريكا من هذا المشروع الأمريكي- الإسرائيلي مشروعاً كونياً.

وصلب هذا المشروع يدور حول عملية السلام، والازدهار والنمو السياسي (دمقرطة الأنظمة كما ساد في بعض السنوات)، إلا أنه لا يمكن اليوم الحديث عن مؤشرات نجاح هذا المشروع، لأسباب متعددة، فعملية السلام- وبعد مضي ما يقارب العشرين عاماً من المفاوضات- عادت إلى ما قبل نقطة الصفر، بالبحث مجدداً عن إطلاق عملية المفاوضات، أما دمقرطة الأنظمة فقد اصطدمت بجدار الفشل، حيث إن السياسات الأمريكية لم تستطع تحمُّل أعباء التحول الديمقراطي في المنطقة، وتقبُّل نماذج حكم تأتي بخصوم الولايات المتحدة إلى سدة الحكم، ومع عدم الترويج، لذلك يزداد اضطراب المشروع الأمريكي في المنطقة بفشلها في تحقيق سلام أو ديمقراطية في المنطقة وتداخلها ببعضها.

٢- المشروع الإيراني

على النقيض من المشروع الأمريكي- الإسرائيلي يأتي المشروع الإيراني في المنطقة، ورغم عدم قدرة المشروع الإيراني على التعايش مع المنطقة أيدولوجيا، إلا أنَّه ما زال قادراً على البقاء نتيجة لتحالفاته مع قوى الرفض في المنطقة، واحتضانه مشروع المقاومة[١]، وعند النظر إلى مستوى نجاح هذا المشروع نجد أنَّ ما يواجهه المشروع الإيراني من صعوبات أكثر ممّا يبدو من بوادر نجاحاته، نتيجة تبنيه الأيدولوجيا الشيعية، والموقف الجماهيري والشعبي العربي السلبي منها، وبسبب الرفض الرسمي العربي للدور الإيراني لأسباب متعددة.

لكنَّ احتضان المشروع الإيراني للمقاومة يمنح هذا المشروع بُعداً جماهيرياً داعماً.

٣- المشروع التركي

أما المشروع التركي في المنطقة فهو في موقع الوسط بين المشروعين السابقين[٢]، فالمشروع التركي له قابلية جماهيرية عربية عالية، ولديه توجهات داعمة لقوى المقاومة، وهو غير مصنَّف دولياً ضمن دعم القوى «الشريرة»، وبالتالي فإنَّ قبول المشروع التركي، وإمكانية تطوره تُعدُّ من القضايا قريبة التحقق الذي يمثل بالنسبة للقوى الدولية بديلاً للمشروع الإيراني في المنطقة.

الانقسام العربي بين محوري «الاعتدال» و«الممانعة»

من العوامل الفاعلة في بيئة الشرق الأوسط، اصطفاف التكتلات والدول العربية الفاعلة في الصراع العربي- الإسرائيلي في محورين، حيث يتشكل ما بات يعرف بمحور «الاعتدال»، ويتكوَّن من مصر والسعودية والأردن والسلطة الفلسطينية، ويحظى بدعم من دول أخرى.

وكذلك ما بات يعرف أيضاً بمحور «الممانعة»، ويضمّ كلاً من: سوريا وحماس وحزب الله متحالفين في ذلك مع إيران، مدعومين في بعض الأحيان من آخرين، مثل: تركيا وقطر.

ويجدر الانتباه إلى أن فهم ديناميكية المحورين يجب أن تنطلق من الرؤية السياسية للمحورين في التعامل مع التطورات الموجودة على الأرض.

فعلى الرغم من أن محوري الاعتدال والممانعة يختلفان في رؤية المشروع السياسي الغربي ودوره في قضية الشرق الأوسط، إلا أنهما يتفقان بشكل أو بآخر على ضرورة إبقاء

الباب مفتوحاً في التعامل مع أي أفكار يمكن تداولها مع أمريكا، والمثال الأبرز لذلك التطورات في العلاقة السورية- الأمريكية، إلى جانب ما أفصحت عنه الحكومة الفلسطينية في قطاع غزة عن استعدادها فتح حوار مباشر مع واشنطن.

ومن خلال القراءة المعمقة للطرح والرؤية السياسية لمحوري الاعتدال والممانعة، نرى أنهما يتجهان نحو الهدوء أكثر من اتجاههما إلى التوتر في الفترة المقبلة، وهذا أحد مؤشرات عدم إمكانية اندلاع حرب جديدة في الشرق الأوسط.

فاعلية قوى الرفض العلني

أثبتت الأحداث والمؤشرات أنه لا يمكن تجاوز ردود فعل وتأثير الرباعية المنظمة المكونة من (إيران وسوريا)، (حزب الله وحماس)، في حال استهداف أي منها، وهكذا فإن اندلاع أي حرب في المنطقة لن يكون إدلاعاً لحرب جزئية، بل ستدخل فيها الرباعية كلها لمساندة بعضها بعضاً، وإذا ما كان المطلوب حرباً جزئية فإنه من الصعب الحديث عن فرص تحقيق نتائج لحرب بهذه الصورة[٣].

ومن هنا فإن عنصر المواجهة الشاملة المباشرة، والقدرة على استهداف مصالح إسرائيلية أو أمريكية في المنطقة يعظّم من الخسائر المختلفة لأطراف الحرب وحلفائهم.

تأثير الزخم الجماهيري العربي الإسلامي

يتميز الزخم الجماهيري العربي الإسلامي بأنه يرفض السياسة الأمريكية والإسرائيلية، وأيّ حرب ستزيد من حدة هذا الرفض، وفي حال نشوب أي حرب في المنطقة فإن ذلك سيؤدي **أولا** إلى زيادة التأييد الجماهيري لتيار المتشددين في المنطقة، وبالذات تنظيم القاعدة، **وثانياً** إلى زيادة الزخم الجماهيري الكوني، والذي برز بشكل كبير بعد الحرب على غزة، وسيزيد من ضغطه على السياسة العالمية، وسيزيد خسائر إسرائيل في رأسمالها الجماهيري العالمي.

ضعف المؤسسات الرسمية العربية

فالمؤسسات الرسمية العربية ليس لديها القدرة على احتواء الأزمات والحروب، فأول انعكاسات الأزمة ستكون داخل المؤسسات الرسمية الإقليمية، وبالذات جامعة الدول العربية، وهذا ما أكدته الحرب على غزة حيث شهدنا انفصام الموقف داخل جامعة الدول العربية.

إن التحليل الموضوعي للعناصر السابقة يقود إلى أن اندلاع حرب في المنطقة، لن يقود إلى تحقيق الهدف العام للمشروع الإسرائيلي أو الأمريكي، بل سيخلق له مزيداً من الرفض والعقبات.

البيئة السياسية الاستراتيجية الدولية

إنَّ البحث عن إمكانية اندلاع الحرب في الشرق الأوسط، يدعونا لاستقراء توجهات التكتلات والدول العظمى، والوقوف على طبيعة الإشكاليات التي تواجهها هذه الدول الفاعلة، ومدى تحقيق الحرب في الشرق الأوسط لمكاسب من شأنها أن تساعد في إيجاد حلول لهذه المشاكل، أو العكس: تحقيق خسائر، أو على الأقل مضاعفة هذه المشاكل لهذه الدول والتكتلات العظمى.

ولذا فإننا نجد أن المشكلة العالمية اليوم تكمن في الأزمة الاقتصادية العالمية، سواء في الولايات المتحدة أو في أوروبا بشكل أساسي[٤]، وعند تحليل عناصر هذه الأزمة، نجد أنها اختلفت عن باقي الأزمات العالمية، فإذا كانت الأزمات الاقتصادية العالمية تاريخياً سبباً لاندلاع الحروب، فإننا نجد في هذه الأزمة طبيعة مغايرة، فالأزمة الاقتصادية العالمية اليوم أزمة اقتصاديات داخلية تمس الفلسفة والنظرية الاقتصادية، بخلاف الأزمات السابقة التي كانت تختص في الحصول على المصادر والتوزيع، وبالتالي فإن طبيعة هذه الأزمة تتطلب من صنّاع القرار اجتراح الحلول الإبداعية داخلياً، وليس الذهاب إلى الحروب الخارجية، كون الحروب الخارجية قد تضاعف من الأزمة، فالأزمة بطبيعتها تخص الداخل الاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، أما فيما يتعلَّق بالصين وروسيا، فإنَّ الهاجس الاقتصادي الأكبر يكمن في النمو الاقتصادي، الذي يعتمد بشكل كبير على منطقة الشرق الأوسط، وبالتالي فإنَّ اندلاع حرب في المنطقة سيجعل الصين وروسيا من أكثر الدول تأثراً بنتائجها السلبية.

ويضاف إلى هذا طبيعة التنافس الاقتصادي الدولي على القارة الإفريقية ومنطقة الشرق الأوسط، وهو ما يجعل من الاصطفافات العالمية مسألة تعيق اندلاع حرب في المنطقة[٥]، فمن الواضح في السنوات الأخيرة أن الصين وروسيا باتت المنافس الأكبر للسياسات الاقتصادية الغربية في أسواق إفريقيا والشرق الأوسط، وباتت أكثر اعتماداً على نفط الشرق الأوسط، الذي سيكون المتضرر الأكبر في حال اندلاع حرب في المنطقة.

أما الإشكالية الكبرى الأخرى التي باتت تواجه العالم اليوم، وبالذات الولايات المتحدة وأوروبا، فهي الفشل في الحرب على «الإرهاب»، والخسائر الكبيرة في أفغانستان والعراق، واندلاع حرب في منطقة الشرق الأوسط سيعمل على زيادة قدرة تنظيم القاعدة وغيرها على استهداف الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وفتح جبهات جديدة للقاعدة للعمل فيها[٦]، وزيادة الدعم الجماهيري لها.

إنَّ دراسة التوجهات العالمية اليوم للتعامل مع الأزمات العالمية تأتي في سياق استخدام القوة الناعمة (Soft power) أكثر من استخدام القوة العسكرية (Hard power) في وقف سياسة الرئيس الأمريكي باراك أوباما، والقائمة أساساً على سياسة منح الفرص، واستخدام القوة الناعمة، كالعقوبات الاقتصادية ...إلخ من أجل إخضاع الخصم أكثر من استخدام القوة العسكرية[٧].

طبيعة الحرب المتوقعة

إنَّ التنبؤ بمواقف الأطراف المعنية اتجاه الحرب متوقعة في الشرق الأوسط، ويعتمد كذلك على طبيعة الحرب وأشكالها ومناطقها ومحاورها، والأهداف المتوخاة والنتائج المتوقعة لأطراف تلك الحرب، ويساعدنا في التحليل، معرفتنا بالدروس التي تمتلكها هذه الأطراف من الحروب الحديثة الحالية والسابقة، ومن هنا تأتي أهمية تفصيل صورة وسيناريوهات هذه الحرب بأشكالها المختلفة:

أولاً: الحرب على الجبهة الإيرانية

إن اندلاع حرب على الجبهة الإيرانية سيأخذ أحد المسارين التاليين: إما الحرب السريعة الخاطفة ذات الاستهداف التكنولوجي عالي الوتيرة، أو أن تمتد هذه الحرب لتتحول إلى حرب كلاسيكية كباقي الحروب في العالم[٨]، وفي الحالة الثانية فإن المشهد السياسي سيحمل مجموعة من عناصر خسارة الولايات المتحدة بوصفها أبرز الفاعلين، ولإسرائيل بوصفها أبرز المتأثرين، فأمريكا تزداد نفقاتها العسكرية على حروبها الخارجية في إيران والعراق وأفغانستان، كذلك فإنَّ حرباً كهذه ستؤدي إلى زعزعة الاستقرار الموجود في دول الخليج العربي، سواء الاستقرار السياسي، أو الاجتماعي الطائفي، أو الديني، كما أنها ستؤدي إلى خلخله في الاقتصاد العالمي، هذا من جهة النتائج السريعة التي قد تحدث ما أن

تندلع الحرب، أما النتائج طويلة المدى فقد تتمثل في التالي:

١. ليس شرطاً أن يؤدي غياب المحور الإيراني في المنطقة إلى تقوية المحور الأمريكي والإسرائيلي فيها، بل قد يحدث اضطراب كبير في التوازن الإقليمي في المنطقة لا يخدم المصالح الأمريكية- الإسرائيلية.

٢. يُتوقع أن يؤدي غياب المحور الإيراني إلى تقوية المشروع التركي الأردوغاني في المنطقة، وقد يؤدي ذلك إلى ظهور محور سني في المنطقة.

وعليه، فقد تهدف أمريكيا وإسرائيل في أي حرب قادمة إلى الحفاظ على المشروع الإيراني، ولكن دون أن تتحول إيران إلى قوة أولى في المنطقة، من خلال حرمانها امتلاك القدرة النووية، وهذا السيناريو يتطلب السير في المفاوضات السلمية مع إيران أكثر من الذهاب إلى حرب غير محسومة النتائج معها.

ثانياً: الحرب على سوريا

يبدو أن سوريا هي الأكثر استهدافاً حال نشوب حرب في المنطقة، للأسباب التالية:

١- إنَّ اشتعال حرب على الجبهة السورية من شأنه أن لا يحقق خسائر كبرى للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، بل العكس فإنَّ إسرائيل قد تلحق خسارة واضحة بسوريا.

٢- إنَّ خسارة سوريا ستؤدي إلى ضرب قوى مقاومة إسرائيل[٩]، وإضعاف معسكري حماس، وحزب الله.

٣- إنَّ خسارة سوريا قد تؤدي لتنشيط عملية السلام في المنطقة وفق الرؤية الأمريكية الإسرائيلية، ولو من الناحية الشكلية، وتضعف محور الممانعة لصالح محور الاعتدال.

ثالثاً: الحرب على غزة

من المؤكد أنَّ تقويض حكم حماس في غزة يُعدُّ استراتيجية إسرائيلية- أمريكية، وهدفاً دائماً، ولكن عند البحث في التوجهات الإسرائيلية اتجاه شن حرب على القطاع نجد أن هناك مجموعة من الكوابح التي تحول دون ذلك ومن أبرزها:

١- نتائج الحرب السابقة: حيث إنَّه وبالرغم من كل ما تم استخدامه من قوة لإسقاط حكم حماس في غزة، فقد ثبت لإسرائيل أنَّه ليس بالأمر السهل، بل العكس، فالنتائج كانت أكثر تأثيراً على إسرائيل[١٠].

٢- إن طبيعة الملفات التي تسيطر عليها حماس تجعل من العسير التفكير أنها ستُحَلُّ إذا اندلعت حرب على غزة، فشاليط: الجندي الأسير عند حماس قد لا يفرج عنه عبر حرب، وعملية السلام قد تزداد تعقيداً في حالة اندلاع حرب فاشلة جديدة على غزة.

٣- إنَّ النتائج المتوقعة لحرب فاشلة جديدة على غزة لن تغير من معادلات المنطقة كثيراً بالنسبة للإسرائيليين، بل إنَّ التغييرات المتوقعة قد تكون بخلاف ما يتمناه الإسرائيليون والولايات المتحدة.

الخلاصة

إنَّ ما تم تناوله من تحليل لطبيعة البيئة الحاكمة لتحركات الدول العظمى وتكتلاتها اتجاه أي حرب قادمة في المنطقة، والوقوف على إمكانية اندلاع حرب فيها، يقود إلى أن هذه الإمكانية تكاد تكون ضئيلة في المدى المنظور، وذلك لتعارض نتائجها مع ما تتوخاه تلك التكتلات والدول المذكورة من نتائج، ولكن سياقات نشوب الحروب أحياناً ليس شرطاً أن تكون حروب نتائج، فهناك نوع من الحروب التي يطلق عليها «حروب اللاحل»، فليس شرطاً أن تكون الحروب حروباً مقدَّرة النتائج، بل يمكن أن تكون حروباً تُشنُّ لتعقيد الأوضاع في ظل ضبابية وغياب المشاريع المعاكسة، أو عدم قدرة المشاريع المعاكسة على السير قُدماً، وهذا ما قد يحدث في منطقة الشرق الأوسط إذا أخذ بالحسبان ضبابية وعدم اقتدار مشروع العملية السلمية، أو مشروع تضامن عربي ذي رؤية لدور فعّال في المنطقة.

الهوامش

١. منير شفيق، التحالف الثلاثي والتوازنات الجديدة في المنطقة، تقدير موقف، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة مارس٢٠١٠.

٢. محمد نور الدين، التوجه التركي في العهد الأميركي الجديد، إلى أين؟، تقدير موقف، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة أبريل٢٠١٠.

٣. طول حرب مستقبلية بين إيران وإسرائيل وشروط انتهائها، انظر:

http://www.psp.org.lb/Default.aspx?tabid=107&articleType=ArticleView&articleId=36694

٤. نظرة عامة على تداعيات الأزمة الاقتصادية وأثرها في كافة بقاع العالم، و الجهود المبذولة للإنعاش، أوراق مقدمه لمؤتمر إثراء المستقبل الاقتصادي للشرق الأوسط، الدوحة مايو ٢٠١٠.

٥. علي حسين باكير، التنافس الدولي في أفريقيا..الدوافع والأهداف والسيناريوهات المستقبلية، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة٢٠٠٩.

٦. انظر: http://almalafpress.net/?d=143&id=105394.

٧. علاء بيومي، الولايات المتحدة بين القوّة الصّلبة والقوّة الناعمة، مركز الجزيرة للدراسات، الطبعة الأولى، الدوحة ٢٠٠٨.

٨. طول حرب مستقبلية بين إيران وإسرائيل وشروط انتهائها، انظر:

http://www.psp.org.lb/Default.aspx?tabid=107&articleType=ArticleView&articleId=36694.

٩. حسن خليل، سيناريوهات ومواقف الحرب المقبلة، جريدة الأخبار اللبنانية، عدد ٢٤ أيار ٢٠١٠.

١٠. سركيس أبو زيد، ما بعد العدوان على غزة، العربية نت، انظر:

http://www.alarabiya.net/views/2009/01/12/64032.html.